مقدمة حول المماليك في الدولة الإسلامية

أولا : المعنى الاصطلاحي لكلمة المماليك :

إن الخوض في إي موضوع من مواضيع التاريخ , لابد لنا من معرفة البعد الاصطلاحي , للمسميات التي تؤطر ذلك الموضوع , حتى يتمكن القارئ من الوصول إلى فهم دقيق للموضوع مجال البحث , وبما إننا نقوم بالخوض في تاريخ الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام (648هـ / 1250م – 923هـ / 1517م), الذي يعد من المواضيع المهمة جدا والشيقة في ذات الوقت , فلابد لنا فهم المعنى الاصطلاحي لكلمة (المماليك) التي أصبحت عنوانا واسما لتلك الدولة.

المماليك جمع مملوك , وهو اسم المفعول مشتق من الفعل ملك , وتعني في اللغة (العبد) , والمملوك عبد يباع ويشرى , ولنكون أكثر دقة فالمملوك هنا هو العبد الذي سبي ولم يملك أبواه , عكس العبد القن أو عبودية القن التي كانت سائدة في العصور القديمة والوسطى , والتي تعني إن العبد ملك هو وأبواه , أذن هذا المدلول اللغوي لمصطلح المملوك الذي جمعه مماليك .

الأ إن تلك التسمية ما لبثت إن اتخذت مدلولا اصطلاحيا خاصا في التاريخ الإسلامي , إذ أضحى المعنى الاصطلاحي في معظم البلاد الإسلامية يقتصر على الرقيق البيض , تمييزا لهم عن نظرائهم من الزنوج – ذوي لبشرة السمراء ــ والذين لازمتهم لفظة (العبيد) .

ويعود استخدام الرقيق البيض (المماليك) في العالم الإسلامي منذ القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد , بعد الفتوحات الإسلامية لبلاد ما وراء النهر, ودخولهم كأسرى في تلك الحروب, وبعد ذلك استخدم إعداد منهم في الأمصار الإسلامية من قبل الولاة , إلا أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى مراكز قيادية في عهد الدولة الأموية.

ثانيا : شراء المماليك و تربيتهم :

كان الخلفاء وكبار القادة والولاة في الدولة الاسلامية يشترون المماليك من أسواق النخاسة , لغرض استخدامهم كفرق عسكرية خاصة , بهدف الاعتماد عليهم

لتدعيم نفوذهم , ومع مرور الوقت أضحى المملوك الأداة العسكرية الوحيدة التي يعتمد عليها , في بعض الدول , كدولة المماليك في مصر وبلاد الشام .

تنوعت إشكال استقدام وشراء المماليك , كما اختلفت أسباب وقوعهم بالرق , إما إشكال وأساليب جلبهم إلى البلاد الإسلامية فهي :

1- الشراء أو مشتروات : وهم من صغار السن , يبيعهم أهلهم نتيجة لكثرة الدين والعوز , وعدم استطاعتهم توفير العيش الملائم لهم , أو لأسباب وبائية , كانتشار الأمراض المهلكة للأطفال (كالطاعون الأسود) , الأمر الذي اضطر الكثيرين لبيع أبنائهم , إلى النخاسين أملاً في حياة أفضل في مكان أخر, حتى وان كانت تحت نير العبودية , ومنهم ـ في فترة سيادة الدولة المملوكية على مصر وبلاد الشام ـ من باع ابنه ليكون مملوكا عله يصبح أميرا ذو شان في المستقبل .
2- السبايا أو الأسر في الحروب : وهم من غنائم الحرب , إذ ساهمت حروب المغول وتوسعهم في أواسط أسيا في زيادة أعداد هؤلاء , وتبعا لذلك كان الأطفال يباعون بأبخس الأثمان , طبقا لقانون العرض والطلب .
3- الهدايا : التي كان يؤديها ولاة أقاليم بلاد ما وراء النهر إلى الخليفة على شكل رقيق , وكانت من علامات التمرد هو إن يقطع أولئك الولاة إرسال الرقيق إلى الخليفة.
4- السرقة والاحتيال : ويعد هذا المصدر ثانويا بالمقارنة مع المصادر السابقة , إذ عمد بعض التجار والنخاسين , بالقيام باستغفال الصبية في تحريك مشاعرهم وأخذهم في مغامرات لا طاقة لهم بها , ومن ذلك قيام احد تجار المدن الايطالية , باستغلال حماسة مجموعة كبيرة من الصبية في فترة الحروب الصليبية , وحسن لهم ركوب البحر كي يشاركوا في الحرب ضد المسلمين , لكن التاجر سرعان ما اتجه بهم إلى بلاد المغرب وصقلية وباعهم هناك.
5- الاجلاب أو الوافدية : وهم الذين تسربوا من الحدود الشرقية للأمبرطورية المغولية , إلى داخل سلطنة المماليك , لاسيما بعد تناحر المغول فيما بينهم , وفي أوقات متباعدة.

وتعد بلاد القفجاق ـ المناطق الممتدة من البحر الأسود غربا وشمال وشرق بحر قزوين وشرق نهر الفولغا وتركستان وصولا إلى منغوليا شرقا ـ المصدر الرئيس او الممول الأكبر للمماليك الترك , واشتهرت مدن مثل سمر قند , وفرغانة , واشروسنة , والشاش (طشقند) وخوارزم , بأنها من

ابرز الاماكن التي يجلب منها المماليك الترك , فقد كان الترك غالبا ما يبيعون أولادهم ذكورا كانوا أو إناثا , أما ابرز أسواق بيع المماليك , فقد برزت مدن مثل القسطنطينية , والمدن الايطالية التي كان لها مستعمرات على البحر الأسود , وشبه جزيرة القرم , وكان للجنويين دور كبير في المتاجرة بهم ونقلهم إلى البلاد الإسلامية .., لاسيما إلى مصر.

وكان التجار غالبا ما يأتون بالمماليك عن طريق البحر وصولا إلى مدينة دمياط والإسكندرية , ومن ثم ينقلونهم إلى أسواق القاهرة , وإما عن طريق البر فقد نشط في جلبهم التجار المسلمون , ويتجمعون في سوق خاصة بهم داخل القاهرة مثل سوق خان الخليلي وخان مسرور , وكان يتولى شراء المماليك من هذه الأسواق تجار أطلق عليهم بـ (الخواجة) أو بـ (تاجر الخاص), لأنهم كانوا يكلفون من السلطان رسميا بشراء فئة معينة من المماليك , ولم يقتصر ذلك الأمر على السلاطين فقط , بل كان لكبار الأمراء نصيبهم من شراء المماليك , وكان يقوم بذلك من ينوب عنهم , لاسيما في ظل استفحال حالة التنافس بين الأمراء على السلطة , مما حدا بهم إلى الإكثار من شراء المماليك .

تراوحت أسعار المماليك ما بين الألف دينار وبضع مئات من الدراهم , بحسب أجناسهم وصفاتهم الخلقية , فمثلا ابتيع كل من المملوك ـ الأمير فيما بعد ـ اقطاي الصالحي , والمملوك ـ السلطان فيما بعد ـ قلاوون , بألف دينار , فيما كان ثمن السلطان بيبرس (800) درهم , وهو ثمن قليل بالنسبة إلى اقرأنه من المماليك , وربما كان ذلك بسبب وجود نقطة بيضاء في إحدى عينيه , كما تنوعت أجناس المماليك , بحسب رغبة السلاطين في ذلك , إذ حرص السلطان بيبرس على استقدام المماليك من جنسه (القفجاق) , بينما شاع استقدام الجنس الشركسي في عهد الدولة الشركسية التي تعد الطور الثاني والأخير لدولة المماليك في مصر وبلاد الشام.

أما تربيتهم فأن السلطان بعد شرائه لهم , يقوم بإرسالهم إلى ما كان يعرف بـ (الطباق) ـ وهو مكان يخصص لكل جنس من المماليك ـ وقد عمد السلطان الظاهر بيبرس إلى بناء طباقين في قلعة الجبل , التي تعد مقر السلطان في القاهرة , والطباق موزع إلى عدد من المساكن , تستوعب مجتمعة حوالي ألف مملوك , هذا من ناحية مكان تربية المماليك , إما طريقة تربيتهم وأسلوب معيشتهم , فكانت حسب ما يذكر المقريزي, " أن المماليك

يسلموا إلى الطواشي وهو أيضا من المماليك , فيتولى تدريبهم ومعه من يساعده على تعليمهم القراءة والكتابة وكذلك من يعلمهم شيئا من الفقه وقراءة القران , وكيفية أداء الصلاة إلى غيرها من أمور الدين , لكن التركيز كان على تعلم القتال وركوب الخيل , حتى استحدث لهم إسطبل خاص بماليك الطباق , وعند بداية احترافهم لممارسة المبارزة وركوب الخيل يعرضون بين فترة وأخرى على السلطان , وكانوا في فترة الطباق يعاملون بشدة ويلزمون بعقوبات قاسية إن قصروا في واجباتهم , وليس لهم أن يخرجوا من الطباق إطلاقا لاسيما ليلاً , وكان عليهم إن يذهبوا إلى الحمام يوما في الأسبوع , وكان أكلهم من اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى إلى غير ذلك , وتسلم لهم كسوات فاخرة , ... وما إن يبلغ المماليك سن الرجولة يعتقوا من قبل السلطان ويحتفل بهم .... فيسلم المملوك سلاحا وفرسا ولباسا خاصا وإقطاعا يبقى له مدى الحياة , ثم يتدرج المماليك الجدد في مناصب الأمارة ويسمى معتقه (أستاذا) ورفاقه (خشداشية) وتعني الزمالة والرفقة .... " .

ووفق ما نقله لنا المقريزي , يتضح إن المماليك كانوا يعيشون في مصر كطائفة أو فئة منفصلة عما حولهم من أبناء ومكونات الشعب المصري , إذ لم يختلطوا بالمصريين , سواء كانوا في ذلك من الأقباط أو المسلمين , ولم يتزوجوا منهم الأ ما ندر , و قد قصروا إعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى ابعد من ذلك , فقد اشترطوا الأ ينخرط في سلك المماليك الحربية ألا من يستوردونه من جديد , فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والإدارية ولا يسمحون لهم بالدخول في الجيش , إما أهل مصر فكانوا في عصر المماليك يتولون الوظائف الكتابية ولم يكن لهم نصيب في الجيش العامل , الأ في بعض الأعمال العسكرية كأعمال الأئمة والصناع.

وكان المملوك شديد التمسك بسيده , أو أستاذه الذي اشتراه وقام بتربيته , وكانت رابطة الأستاذ بمماليكه رابطة لا انفصام لها, فقد كانوا يخلصون له في السراء والضراء , ويكونون رهن إشارته يوجههم كيفما شاء لتحقيق مآربه , إما الرابطة الأخرى كانت (الخشداشية) , إذ كان المماليك ينشئون معا عند أستاذ واحد , فكانت تنشأ بينهم تلك الرابطة الأخوية أو رابطة الزمالة والرفقة كما يسميها المقريزي, وهذه الرابطة كانت لها قوة واحترام فيما بينهم , وكانت تجعل الواحد منهم يتعاطف مع خشداشه اي زميله , ويؤازره في المحن والشدائد, وينصره على أعدائه وينتصر له دائما.

والحقيقة أنه إذا أردنا أن نختار صفة شاملة للتاريخ المملوكي , فلن نجد ابرز من صفة العصبية , فتاريخ المماليك هو الذي تجلت فيه العصبيات بأوضح اتجاهاتها , فلكل سلطان عصبيته من المماليك السلطانية , ولكل أمير عصبيته من المماليك الذين دانوا له وارتبطوا به, وبقدر ما تقوى عصبية السلطان , ويزداد عدد مماليكه , بقدر ما يستطيع الصمود بوجه منافسات الأمراء ومؤامراتهم , وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من البروز على حساب الأمراء الآخرين , وانتزاع السلطة من السلطان الحاكم , وهذه ظاهرة تاريخية أنفرد بها التاريخ المملوكي , وكان النزاع الذي يحصل بين هذه العصبيات سببا في تعكير صفو الحياة الأمنية والاقتصادية والإدارية في الدولة المملوكية.